مصطلح العدول بين التعددية والإشكالية في المنهج الأسلوبي

الدكتور : **إيمان محمد عبد المعطي أبو سمرة**
الجامعة الإسلامية / الجامعة الامريكية_ بمنيسوتا

الملخص:-

الحَمْدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعدُ:

فيندرج العدول في الدرس الأسلوبي ضمن قواعد فهم الأسلوب، وتحليله، إذ يتركز فعله الإبداعي على رصد كل تحوُّل أو عدول يستدعيه الكلام في نسق التعبير المألوف على ما يقْتضيه ظاهر الحال من المطابقة والوضوح دون تغير في جوهر المعنى أو البنية العميقة له؛ ليؤدي بذلك العدول وظيفية نوعية، إذ يُحمل على إحداث اللذة والاهتزاز النفسي، وتحقيق الإثارة لدى المتلقي، إضافة إلى الوصول إلى أغراض خاصة بالسياق للوصول إلى معنًى المعنى، ولا يدرك ذلك إلاَّ متلقٍّ حاذق؛ نتيجة الثنائية الناجمة عن التحول الناتج من العدول عن التعبير المألوف، حيث يكمن السّرُّ في العدول وإليه يكون المصير حين التفْكير فيه للوصول إلى مقاصده.

المقدمة:-

انعقدت لبيان ممهّدات الموضوع وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، ثم بيان أقسام البحث ومباحثه. **أما التمهيد:** فقد جاء توطئة لموضوع البحث ولتوضيح مصطلحاته الأساس. **والمبحث الأول:** وجاء بعنوان **(مفهوم مصطلح العدول في التراث)**، وقد تناولت فيه المعنى اللغوي والاصطلاحي لمصطلح العدول إضافة إلى توضيح العدول في التراث عند أهل اللغة والنحو والتفسير والبلاغة. **والمبحث الثاني بعنوان:** (مفهوم مصطلح العدول عند المحدثين) وفيه عرض المسميات الأكثر انتشارا عند النقاد والأسلوبيين والوقوف على مفهومها من المنظور الخاص لكل منهم؛ لتجلي الإشكال الحاصل، أما **المبحث الثالث** بعنوان: (أسباب العدول ومقاصده) ويحاول هذا المبحث توضيح أسباب الأسلوب العدولي من خلال معرفة قيمته الفنية ووظيفته البلاغية. **والخاتمة:** وقد تضمنت ملخصًا لنتائج البحث، وذكر **التوصيات**. ثم بيان بأهم **المصادروالمراجع**. **وختامًا:** أرجو أنْ تكونَ هذه الدراسة قد أعطت الموضوع حقه، وأن يكون لبنةً في بناء معرفتنا الاصطلاحية لمصطلح قديم تم إحياؤه في الدرس الأسلوبي، وأن يفيد منه الباحثون مثلما أفاد البحث من غيره.

التمهيد:

ترى ما مفهوم العدول التراث البلاغي؟ وما علاقة العدول بغيره من المصطلحات في الدرس الأسلوبي الحديث؟ وما الأثر النقدي لهذه المصطلحات في تجديد البلاغة العربية في العصر الحديث؟ قبل البدء في الحديث عن هذه الأسئلة والحديث عن أقسام البحث حول (مصطلح العدول بين التعددية والإشكالية في المنهج الأسلوبي) علينا تحديد مصطلحات البحث الأساس: مصطلح العدول- التعددية- الإشكالية- المنهج الأسلوبي.

أولًا: مصطلح العدول:

لقد نتج عن تتبع المعنى اللغوي لمصطلح العدول في المعاجم من خلال المادة اللغوية للجذر (ع، د، ل) عدَل، عَدَلَ عنه يَعْدِلُ عَدْلًا وعُدُولًا معنى الميل والانحراف، أو التحوُّل والانصراف[1]، وقد عرف العدول عند النحاة أنَّه خُرُوج الاسم عن صيغته الأصليَّة إلى صيغة أخرى، وهذه المعاني شديدة الارتباط بالمعنى الاصطلاحي، ويفهم العدول في اللغة إجراء يلحق الصياغة لمقاصد فنية عامة لا ترتبط بداية بتحسس عناصر الجمال.

ثانيا: التعددية (التعدد الاصطلاحي):

يعد مفهوم العدول من المفاهيم الأسلوبية واللسانية التي مسَّها الغموض، و"غموضه ليس مبررًا لنا لأنْ نهمل الحديث عنه، ولا لأن نُضرب عن الخوض فيه: فإن بعض المفاهيم كلّما غمضت ازداد إيلاع الباحثين والمحلّلين بها، حتى تتبلور في أذهانهم، وتتضح معالمها في عقولهم، فتغتدي نظرية مؤسّسة"[2]، والعدول مفهوم ارتبطت بدائرته مصطلحات كثيرة فتعددت مسمياته وتباينت، وازداد بغموضه ولع الباحثين والدارسين وجدلهم، وجاء تعريفه حسب المنظور الخاص لكل منهم؛ فأثير حوله بعض الجدل انتشر صداه النقد العربي والغربي معا؛ مما صعب تحديده. لذا تهتم هذه الدراسة بجذور المصطلح في تراث النقد العربي، وتطوراته في حاضر النقد العربي والغربي؛ لتؤكده على الموافقة الحاصلة بين الزمنين محاولة استكشاف المفهوم عند العرب قديما وحديثا، لما أثير حوله من جدل ملأ صداه النقد العربي والغربي معا.

ثالثا: الإشكالية:

إنّ التعدد الاصطلاحي في الدرس الأسلوبي من أهم الإشكالات النقدية، ونخص بمعالجة الدراسة مصطلح (العدول) في التراث والحداثة الذي يقع بالدارس في حيرة جراء هذا الزخم للاصطلاح الترادفي، الذي يصعب تحديد المصطلح الأدق والأدلّ للعدول في البحث الأسلوبي، أو ضبط ماهيته، في ظل الدلالات المتآزرة للانزياح والتجوز والاتساع وغيرها من المصطلحات التي فتحت النص الإبداعي نحو آفاق واسعة من الإبداع ومنها مغادرة المباشرة و التقريرية في الكلام. وقد عرّفه الباحث التونسي عبد السلام المسدي بـ (الانزياح) ونعته بالطفرة الاصطلاحية[3]، وقد أكسب الأسلوبية ثراء في التحليل من خلال تكاثف السمات الأسلوبية، وقام بإحصاء عدد من المصطلحات، وحصرها في اثنى عشر مصطلحًا، متأثرًا ببعض النقاد الغربيين، ويقوم البحث بتوضيحه المصطلحات قديما وحديثا للوقوف على المصطلح الأقرب لدلالته بالتوافق بين القديم والحديث للحد من فضاء تحرره واتساعه.

رابعا: المنهج الأسلوبي:

إن إثارة المنهج الأسلوبي لماهية المعاني حول العدول عن الخط المألوف للتعبير عن الطاقات الإيحائية في الأسلوب، فالانحراف عن النسق الأصلي في البنية النصية يحدث مفاجأة واستثارة للمتلقي نتيجة التضادّ النَّاجم عن التغيير الحادث من اختراق غير متوقع للنظام، فضلا عن إضافة مزيَّة جراء هذا التحول والانحراف. وقد نتج عن ذلك تعدد المصطلحات، وهذه التعددية حظيت باهتمام الباحثين والدارسين، وما زالت. مما دعا الدرس الأسلوبي الحديث إلى إحياء هذا المصطلح المعروف قديما بالعدول.

المبحث الأول: العدول في التراث والحداثة.

أولا: مصطلح العدول في التراث:

جاءت ومضات (العدول) في كتب التراث العربي-اللغوي والنحوي والبلاغي والتفسيري- كابن جنّي وسيبويه والزمخشري وابن الأثير والعلوي وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم، وقد استعمل بأشكال متعددة بمسميات مختلفة الدال متفقة في الدلالة ومرادفة المعنى، ممَّا يدلّ على أصل الفكرة في سنن العرب فهو غير جديد في تحليل النص الأدبيّ، وجاء العدول في تراثنا النقدي بعدة مدلولات، منها؛ العدول عن طريقة السابقين- العدول عن الحقيقة إلى المجاز- العدول عن الصور القريبة إلى الصورة الغامضة- العدول عن الأبنية والصيغ. ويرجع هدفهم من العدول إلى أمور عدة منها؛ الحفاظ على دقة اللفظ وانسجام العبارة، والإيجاز والاختصار، والتوسع في المعنى، وتناسب المقاطع أو مشاكلتها وغير ذلك.

أ_ مصطلحات العدول عند اللغويين والنحاة:

-الاتِّساع: أو التوسع في المعنى، وقد استخدمه (سيبويه ت180هـ) بمعنى التوسُّع من خلال أربعة صيغ صرفية (الاتِّساع، والسَّعة، وأوسع، واتسع)[4]. والسعة عنده تعني (المجاز) - أو تشبيه أو استعارة أو إيجاز إلى غير ذلك- كونه لون من العدول من حيث هو خروج عن الأصل، وانحراف بالمعنى عن الحقيقة وذلك يكون لفائدة أو لنكتة بلاغية. وقد يكون الاتساع في الكلام للإيجاز والاختصار كما استخدمه[5].

وأقرّ **ابن جني** أنّ كثيرًا من باب (شجاعة العربية)[6] من أنواع المجاز والاتساع كتبادل الحروف بعضها مكان بعض، والمحذوف والزيادات والتقديم والتأخير وغيرها، مستدلاً على ذلك بأمثلة سيبويه، مدللاً على ما بها من مجاز واتساع وتشبيه وتوكيد، ووقوع المفرد موقع الجمع وعلة ذلك عنده هي الاختصار والتخفي، ووقوع الجمع

موقع المفرد[7]. ويقول أيضا: "وإنَّما يقع المجاز ويُعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة وهي: "الاتِّساع"، و "التوكيد"، و "التشبيه"، فإن عدِم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتَّة"[8]. فقام ابن جني بالربط بين غرض الكلام وصياغته في سياقه الوارد فيه وهو صلب الحقل الأسلوبي الحديث.

وسلك (ابن فارس ت 395هـ) طريق سابقيه الحديث عن سنن العرب، من الحذف والاختصار، وذكر الجمع والمراد الواحد، ومخاطبة الواحد بلفظ الجميع، وخطاب الواحد بلفظ الاثنين، والبسط والقبض، والتقديم والتأخير، والمحاذاة في الكلام، والاعتراض. إضافة إلى توضيح قيمة الاتِّساع، فيقول: "... لو أنه لم يعْلم توسُّع العرب فِي مخاطباتها لَعَيَّ بكثير من علم مُحْكَم الكتاب والسنَّة"[9]، وكأن معرفة الاتساع والإلمام بخباياه شيء ضروري لمن يرغب في فهم النص القرآني وتذوقه، بالمزج بين اللغة والبلاغة إلى غير ذلك.

ـ المجاز والإيجاز والاختصار: ويسميه بعض النّقاد القدماء بالمجاز لكونه تجوّز للحقيقة، -والذي يُعدُّ لونًا من ألوان العدول- واستخدمه (سيبويه) صريحا في كتابه في أكثر من موضع[10] من التراكيب التي خرجت عن نمطيَّتها، وعُدولها عن أصلها في الأداء اللغوي، ساريا على كلام العرب في سننهم. وقد تبيّن من خلال نصوصه أنه قام بالربط بين اللغة والنحو وما ينتج عن ذلك من تطلب سننها من وجوه بلاغية يتجلى منها تناوله السطحي تارة، وجودة تناوله تارة أخرى.

وتأثر كثير من العلماء باستخدام العدول بمعنى **المجاز**[11]، ومنهم (الفرَّاء ت207هـ) حيث استخدمه في العدول عن التثنية إلى الجمع؛ ففي قوله تعالى: ﴿هَـذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[12] لم يقُل النص القرآني (اختصما) بالمثنى، لأنَّهما جمعان ليْسا برجُلين[13]؛ فعدل بالمثنى إلى الجمع. ومن العدول بأن يجعلوا المفعول به فاعلاً إذا كان في مذهب نعت[14]. وثمة مواضع كثيرة يتخذها الفرَّاء وسيلة من سنن العرب وطرقهم في الكلام؛ لترجيح بعض القراءات القرآنيَّة، وطريقًا من طُرق العدول.

ويَعُدُّ (أبو عبيدة ت210هـ) كلَّ عدول أو انحِراف عن مقتضى الظَّاهر من المجاز كما جاء عند العرب، فأشار إلى ظاهرة المجاز بالاستشهاد لها بما ورد على نهجها من كلام العرب شعرًا ونثرًا. فيقول: "ومن مجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد الَّذي له جمع منه ووقع معنى هذا المفرد موقع الجمع؛ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾[15]، في موضع "أطفالاً"[16]، ومنه مجاز العدول عن الجمع إلى الإفراد بلفظ الواحد إلى غير ذلك. فتوسع معنى المجاز عند أبي عبيدة "ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر، ومجاز ما حُذف، ومجاز ما كف عن خبره، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين، ومجاز ما جاء لفظه خبر الجميع على لفظ خبر الواحد، ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا أُشرِك بينه وبين آخر مفرد... ومجاز ما جاءتْ مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناه مخاطبة الشَّاهد، ومجاز ما جاءتْ مخاطبته مخاطبة الشَّاهد، ثم تُركت وحُوِّلت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب... ومجاز المجمل استغناءً عن كثرة التَّكرير، ومجاز المقدَّم والمؤخَّر... وكل هذا جائز قد تكلَّموا به"[17].

وقد سار (ابن قتيبة ت 276هـ) على نهج سابقيه في كتابيه (تأويل مشكل القرآن) و(تفسير غريب القرآن) ، مؤكدا فكرته بأنّ القرآن جاء على سنن العرب؛ لما للغة العرب من الاتساع في المجاز ما يميزها عن سائر اللغات مبرهنا ذلك بشواهد شعرية ونثرية، لذا جعل بابا مستقلا بعنوان (مخالفة ظاهر اللفظ معناه)[18]. وله رؤية في

تقسيم الكلام فقال: "وللعرب المجازات في الكلام، ومعْناها: طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة: والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن"[19]، ويتجلى من نص ابن قتيبة اتساع المجاز من خلال صعوبة التفريق بين الدال ومدلوله في الخطاب الأدبي من لغة العرب أو الخطاب القرآني.

_**الانحراف (الخروج عن الأصل):** وهو الانحراف عن قاعدة ما أو الخروج عن أنماط اللغة، وقد استعمل (ابن جني ت392هـ) العدول في حديثة عن الحركات الإعرابية للبسملة في أربعة أشكال، عن طريق الربط بين العدول والدلالة السياقية، فيقول: "... وكل ذلك على وجه المدح، وما أحسنه ههنا! وذلك أنَّ الله -تعالى- إذا وُصِف فليس الغرض في ذلك تعريفه بما يتبعه من صفته... وإذا كان ثناءً فالعدول عن إعراب الأول أولى به... فإذا عدل به عن إعرابه، عُلم أنه للمدح أو الذمّ في غير هذا... فلذلك قَوِيَ عندنا اختلاف الإعراب في "الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ" بتلك الأوجه التي ذكرناها، ولهذا في القرآن والشعر نظائر كثيرة"[20]. كما استعمل الخروج عن الأصل فقال: "من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن مُعتاد حاله، وذلك "فُعَال" في معنى "فَعيل"، نحو: "طُوَال"، فهو أبلغ معنًى من "طَويل"، و"سُرَاع" أبلغ من "سَريع"، ففُعَال -لعمري- وإن كانت أخت "فعيل" في باب الصفة، فإن فعيلاً أخصُّ بالباب من "فُعَال"، ألا تراه أشدَّ انقيادًا منه، تقول: "جَميل"، ولا تقول: "جُمَال"، و"بَطيء" ولا تقول: "بُطَاء"... فلمَّا كانت "فعيل" هي الباب المطرد وأُريدَت المبالغة، عُدِلَت إلى "فُعَال"، فضارعت "فُعَال" بذلك "فُعَّالاً"، والمعنى الجامع بينهما خروج كل واحد منهما على أصله، أما "فُعَّال" فبالزيادة، وأما "فُعَال" فبالانحراف به عن "فَعيل"[21].

ويقول في باب (استِعْمال الحروف بعضها مكان بعض): "ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا، لكنَّا نقول: إنَّه يكون لمعناه في موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه والمسوِّغة له، فأمَّا في كل موضع وعلى كل حال فلا"[22]، ويتجلى من قول ابن جنّي أنَّ تناوب الحروف أمر يخضع للأحوال الداعية إليه والمسوِّغة له وليس للقياس، وهذا لون من العدول، وقد سار على نهجه ممن جاء بعده من أهل التفسير والنحو والبلاغة والنقد. والشاهد من الكلام أنّ ابن جني اهتم بالسياقَ وقرائنَ الأحوال اهتماما كبيرا في توجيه المعنى والوقوف على بلاغة استعمال الحرف. والحقيقة عبارة عن الأصل-تصور واقعي صريح ومثالي-، وأما المجاز هو عدول عن الأصل، ورأى من باب (شجاعة العربية) أنّ "العدول" في الشعر ليس من الاضطرار، وإنَّما الدافع إليه رغبة الشاعر في التعبير المبني على الانتقاء، فيقول: "... فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها وانخراق الأصول بها، فاعلم أنَّ ذلك على ما جَشِمَهُ منه وإن دل من وجه على جَوْرِه وتعسُّفه؛ فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمُّطه وليس دليلًا على ضعف لغته، ولا قصورًا عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته، بل مَثَلُهُ في ذلك عندي مَثَلُ مُجْرِي الجَمُوح بلا لجام، ووارد الحرب الضَّروس حاسرًا من غير احتشام، فهو وإن كان ملومًا في عنفه وتهالكه، فإنَّه مشهود له بشجاعته وفيض مِنَّتِه"[23]. فيعالج ابن جني ظاهرة الانحراف بالدلالة الحقيقيَّة إلى دلالات أخرى مجازيَّة، بمثابة لبنة خصبة للمجاز للدرس الأسلوبي، إضافة إلى ترسيخ العدول في النص القرآني والأدبي أيضا. وجاء على نفس النهج من العدول عن الأصل[24].

_**التحويل/ التحوُّل:** استخدم (ابن هشام ت761هـ) مصطلح العدول بمعنى التحويل، في أثناء حديثه عن أقسام التَّمييز المبيّن لجهة النسبة وهي عنده أربعة: (أن يكون محولاً عن الفاعل، أو المفعول، أو محولا عن غيرهما، أو أن يكون غير محوّل[25]. وقد عرض الشواهد على كل نوع على حده.

ويستخلص مما سبق أن (العدول) - عند اللغويين والنحاة – عبارة عن التحوُّل الأسلوبي، أو الانحراف عن الأصل المثالي، الذي لا تتغيَّر به البنية العميقة له التي بها جوهر المعنى، وبمعنى آخر يمكن أن نقول أنه العدول من صيغة إلى صيغة أخرى من صيغ التوسع في المعنى، ومن المصطلحات التي جاءت مرادفة للعدول في تراثنا العربي (الاتساع والمجاز، والالتفات، والانحراف والتحول) وعدل بها في العلامة الإعرابية من حذف وزيادة وتقديم وتأخير وتناوب إلى غير ذلك، والضمائر بأنواعها، والعدد، والنوع (تذكير وتأنيث)، والتعيين (التعريف والتنكير).

ب_مصطلح العدول عند البلاغيين والمفسرين:

لقد اهتم البلاغيون بمصطلح العدول وجاءت الدلالة شديد الصلة بين اللغويين والبلاغيين، وتدور في مجملها حول معنى التحوُّل أو الميل والانحراف عن المألوف في اللغة الأصلية، أو الخروج عن القاعدة المطَّردة، والاتساع، والتوسع، الانصراف عن الشيء، والصرف، والتلوّن[26]. ومن المصطلحات الأكثر استعمالا، ما يأتي:

_**الالتفات:** وكان أول من استخدم مصطلح الالتفات بمعنى العدول (الأصمعي)، وعقبه في ذلك (ابن المعتز) حيث عدّه أول محاسن البديع وأهمها، وذلك في كتابه (البديع) ثم شاع استخدامه عند البلاغيين[27]. وقد استخدمه (الزمخشري ت538هـ) في (الكشَّاف)، وأشار إلى فائدة استخدامه في الكشف عن بلاغة النص القرآني، وجاء ذلك من خلال التوافق والتلاؤم بين تخيُّر اللفظ، وتخير الموقع، فتحقق له بمصطلح "العدول" تحقيق النظم، كما يتم العدول بالخطاب من زمن الماضي إلى المضارع فيجعل المتلقي مشاركا في الحدث وكأنه واقع مشاهد، ومنه العدول من المضارع إلى الماضي يجعل المتوقع من المتلقي في النسق الطبيعي المطرد للزمن في حُكم الواقع لدفْع المخاطب إلى التيقُّن منه[28]. فالزمخشري يتبع في منهجه التماس الأسباب والعِلل لتجاوز النسق القرآني للأسلوب الأصلي أو المألوف، ويوضِّح قيمةَ ذلك بلاغيًّا وجماليًّا؛ فيهتم بباب الترتيب في الكلام والأصل فيها، وقيمة تقديم ما حقُّه التأخير، ففيه تنبيه على مفهوم البلاغة من مطابقة الكلام لمقتضى الحال، حيث يجعل الكلام نقطة التقاء فاعلة بين طرفي عملية التواصل (المتكلم والمتلقي) وفيه تدور وتدرج إلى الأعلى؛ لتشويق المتلقي وإثارته وتطريّة لحاسة سمعه ومشاركته في استنطاق النصوص؛ لذا يبرهن الزمخشري على العدول من أسلوب إلى آخر أو بلاغة الالتفات فيه فائدة، أو نكتة بلاغية تُستنبط عند تأمُّل السياق واستنطاقه، إضافة إلى إيقاظ المتلقي والتطريّة له[29].

-**الخروج عن الأصل، أو الخروج على مقتضى الظاهر/ التحول:** واستخدمه الإمام (عبد القاهر الجرجاني ت 471هـ) كثيرا في كتابيه (دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة) بمعانٍ متعددة، حيث ربط مفهوم العدول بصيغة معنى المعنى ومنها من خلال استعماله الكناية، والاستعارة، والمجاز، إذ يقول: "اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تُعزى المزية والحسْنُ فيه إلى اللفظ وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم،... فالقسم الأول: "الكناية" و"الاستعارة" و"التمثيل" الكائن على حدّ الاستعارة وكل ما كان فيه على الجملة، مجازٌ واتساعٌ وعدولٌ باللفظ عن الظاهر"[30]، ويتجلى من النص أنه استخدم مرادفات اصطلاحية هي (الاتّساع أي: اتساع المعنى، والعدول أي: الخروج بمعنى اللفظ مخرج الإيحاء، وقد يتضح العدول باللفظ من حيث يستعصي فهم المعنى من اللفظ الأصلي، وقد وضح

ذلك بقول الشاعر: ولا أبتاع إلا قريبة الأجل[31]، لا يستطيع القارئ العادي في نظر الإمام عبد القاهر فهم المعنى ما الذي يُشترى بدلالة اللفظ الظاهر أو ما يفهم من قرب أجل ما يشتريه الشاعر، فلا معنى للتمدّح إلا إذا "... طلبت له تأويلا ، فعلمت أنه أراد أنه يشتري ما يشتريه للأضياف ، فإذا اشترى شاةً أو بعيرًا، كان قد اشترى ما قد دَنا أجله لأنه يُذبحُ ويُنحر عن قريب"[32]، يدل هذا على غموض الشطر الشعري في ظاهرها إلا أنها مفعمة إبداعيا في جوهرها، فالشاعر قد عبّر بأسلوبه الخاص عن تمدحه وتفاخره دون أن يصرّح به، فاحتاج فهم المعنى إلى الإيحاء الذي استوجبته العبارة الشعرية، فقد وظف الشاعر معناه من خلال رسم صورة بلاغية فقد فيها لذة الجود والكرم في أسلوب يوحي بمعنى خفي مما يجعل القارئ يسعى سعيًا حثيثًا للكشف عن قناع المعنى الذي تلبسه اللغة المستعملة، وعُرف بالقارئ المثالي عند بعد البلاغيين والنقاد. وفي موضع آخر ربط عبد القاهر بين مصطلح (العدول) و(المجاز)، فقال: "وإذا عُدل باللفظ عمَّا يوجبه أصل اللغة، وُصف بأنه مجاز، على معنى أنهم جازوا به موضعَه الأصلي، أو جاز هو مكانه الذي وُضع فيه أولًا"[33]. وفي باب (التقديم والتأخير) أشار في سياق العدول إلى التقديم وبلاغته[34]، وذلك لما في التقديم من فائدة ومزيّة لا تطلب التأخير، فتغيير الترتيب بالتقديم أو التأخير هو عدول عن الأصل، ولقد فرّق الإمام بين نمطين في التركيب أو الصيغة، أحدهما نمطي أو مثالي أو أصلي، والآخر عدولي أو فنّي أو انحراف عن الأصل، ومرجع المقارنة بين النوعين أنهما مترادفان في الدلالة على المعنى نفسه إلا أنّ العبارة التي يحدث فيها التقديم أو التأخير تنتج معنى لا تبرزه العبارة الأصلية، وهذا ما يتم إيثاره في النص القرآني، لما فيه من عدول للجمل المنتظمة على بنيته العميقة ومعناه الجوهري.

وجاء عند عبد القاهر بالتحول من دلالة اللفظ لمعناه إلى معنى المعنى، حين أشار إلى أنّ: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانيةً تصل بها إلى الغرض... وإذ قد عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول: المعنى، ومعنى المعنى، تعني بـ"المعنى": المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبـ"معنى المعنى": أن تَعْقِل من اللفظ معنًى، ثم يُفضِي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[35]. ويتجلى من هذا النص الوصول بدلالة المعنى إلى معانٍ أخرى أو معنى المعنى يكون بالعدول عن أصل العبارة لمقاصد لا يبرزها اللفظ وحْدَه، وهذا يجعلنا نربط المسميات ببعضها.

ويعد (السكاكي ت626هـ) أكثر البلاغيين استخداما وإدراكا لهذا المصطلح المنحرف والمثالي، ويتجلى ذلك من خلال رؤيته للإيجاز والإطناب ووصفه لهما على أنهما أمران نسبيان، من كونهما ممثلين لعدول عن أصْل مفترض، هو "المساواة"، وهي متعارف أوساط الناس[36]. وهذا الوصف يبين مدى إدراكه أيضا للانحراف عن الأصل.

فظاهرُ الكلام قد يكون موجزا وهو مطنب بالقياس إلى غيره؛ ويرجع تحديد مواضع الإيجاز والإطناب إلى متعارف الأوساط؛ فكلما كان الكلام مختلفا عن الأصل والتقليد ازداد جمالا لذا ينفرد القرآن الكريم وارتبط العدول عند السكاكي أيضا بالتشبيه والاستعارة والمجاز، حيث يرى أن المجاز "هو الكلمة المستعملة في غير ما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة استعمالًا في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة من إرادة ما تدل عليه بنفسها"[37]، وقد استدل بشواهد قرآنية كثيرة. إضافة إلى براعته توسيع نِطاق البنية الأصلية، التي يمثل الالتفات عدولا عنها، والتركيز على الانحراف بين الصيغة النحوية والأسلوب البليغ، لذا نقل الالتفات من (البديع) إلى

(المعاني)، وترجع فكرته إلى مراعاة مقتضى الحال، وتوسيع مفهوم العدول، ومفاجأة المتلقي (مستمع أو قارئ) بالانتقال المفاجئ المرتبط بالنص، فيدخله في تحليل وتوضيح دلالة بنية العدول لما في هذه البنية من مخالفة للأصل المألوف وما تنتجه من توليد معان متعددة، وإحياء النص بظهور جمالياته.

كما ركز السكاكي _متأثرا بالزمخشري- على قيمة العدول وارتباطها بالمتلقي المثالي الذي يحسن تلقي النص بتفاعله معه وتأمله ومن ثم استنطاقه لتجلي مقاصد هذا العدول، فيقول: "وهذا النَّوْع قد تختصُّ مواقعُه بلطائف معانٍ، قلَّما تتضحُ إلا لأفرادِ بلغائِهم، أو للحُذَّاق المَهَرَةِ في هذا الفن، والعلماءِ النحارير، ومتى اختصَّ موقعه بشيء من ذلك كساه فضلَ بهاء ورونق، وأورث السامعَ زيادةَ هِزَّةٍ ونشاط، ووجد عنده من القَبول أرفعَ منزلةٍ ومحلٍّ، إن كان ممن يسمع ويعقل، وقليلٌ ما هُم... ولأمرٍ ما وقع التباين الخارج عن الحدِّ بين مُفسِّرٍ لكلام ربِّ العِزَّة ومفسِّر، وبين غوَّاص في بحر فرائده وغوَّاص، وكل الْتفاتٍ واردٍ في القرآن متى صرتَ من سامعيه عرَّفك ما موقعه"[38].

وقد حظي العدول باهتمام (ابن الأثير ت 637هـ) في كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) في الفصل الثالث: بعنوان (في الحكم على المعاني)، وترجع فائدة ذلك للإحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها، وهو عنده ضرب من ضروب التأكيد والمبالغة، ويقول: "واعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل، كقوله تعالى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}[39] فالظاهر من لفظ "الثياب" هو ما يلبس، ومن تأوّل ذهب إلى أن المراد هو القلب، لا الملبوس، وهذا لا بُدَّ له من دليل، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ"[40]. أي المعنى اللفظ الظاهر واضح ولا خلف حوله، والمعنى المعدول عن ظاهر اللفظ الذي يتجلى من التأويل يقع فيه الخلاف للتفاوت في استنباطه بين العلماء لاختلافهم في التوضيح واستعمال العبارات والصيغ القوية.

وتناول أيضا (ابن الأثير)، العدول على أنه التفات، ويرى من باب شجاعة العربية العدول بالانتقال من صيغة إلى أخرى، أو خطاب إلى آخر، أو زمن إلى آخر، إلى غير ذلك[41]. ويتجلى من إشارات ابن الأثير تطويره لمصطلح العدول/ الالتفات عن سابقيه، فأحدث بذلك تآلفًا بين ثنائية التخير والتركيب، أو المستوى الأفقي والمستوى الرأسي، إضافة إلى توضيح علاقة العدول بالإيجاز لاستيفاء المعنى، وإشراك المتلقي.

وقال –ابن الأثير- في موضع آخر : "وأما المجاز فإنه يفهم بعد فهم الحقيقة، وإنما يفهم بالنظر والفكرة، ولهذا يحتاج إلى دليل؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ فالحقيقة أظهر، والمجاز أخفى، وهو مستور بالحقيقة، ألا ترى إلى قوله تعالى: {أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ}[42] فإن الفهم يتسارع فيه إلى الحقيقة التي هي ملامسة الجسد الجسد، وأما المجاز الذي هو الجماع فإنه يفهم بالنظر والفكر، ويحتاج الذاهب إليه إلى دليل؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ"[43].

ويقول: "أما الحصر الذي ذكرته في باب الاستعارة فهو ذاك، ولا زيادة عليه، وأما الكناية فهي جزء من الاستعارة، ولا تأتي إلا على حكم الاستعارة الخاصة؛ لأن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له، وكذلك الكناية، فإنها لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المكنى عنه، ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام، فيقال: كل كناية استعارة، وليس كل استعارة كناية، ويفرق بينهما من وجه آخر، وهو أن الاستعارة لفظها صريح, والصريح هو: ما دل عليه ظاهر لفظه، والكناية: ضد الصريح؛ لأنها عدول عن ظاهر اللفظ، وهذه ثلاثة فروق: أحدها الخصوص والعموم، والآخر الصريح، والآخر الحمل على جانب الحقيقة والمجاز"[44].

ويوضح ابن الأثير هدف منشئ الخطاب من استخدام الأسلوب العدولي، فيقول: "اعلم أيُّها المتوشِّح لمعرفة علم البيان، أنَّ العدول من صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلاَّ لنوع خصوصية اقتضتْ ذلك، ولا يتوخَّاه في كلامه إلا العارفُ برموز الفصاحة والبلاغة... فإنَّه من أشكل ضروب عِلم البيان، وأدقها فهمًا، وأغمضها طريقًا"[45]. فإن كل حالة من حالات العدول تنطوي على معنًى بعينه، يقصد إليه منشئُ الخطاب.

ويقول في موضعٍ آخرَ مشيرا إلى تعدُّدَ الأغراض المقصودة من العدول بتعدُّد سياقه: "إنَّ الغرض الموجِب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يَجري على وتيرة واحدة؛ وإنما هو مقصورٌ على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعَّب شعبًا كثيرة لا تنحصر، وإنما يُؤْتى بها على حسب الموضع الذي تَرِد فيه"[46]؛ فقد تتعدد الأهداف الدلالية للعدول حيث تَرِد صيغةٌ ما مِن صِيَغ العدول في سياق بعينه؛ لتشيرَ إلى المعنى المقصود، ثم تَرِد هذه الصيغة نفسُها في سياق آخر؛ لتشيرَ إلى معنى آخرَ مقصود، هو نقيضٌ للمعنى الأول، رغم أنه مماثل للأوَّل في بِنْيته المخالفة لمقتضى الظاهر، ويَرجع ذلك إلى اختلاف السِّياق، وقرائن الأحوال. وهذا يعني خصوصية الدلالة في كلِّ حالة.

_**الاتساع/ التوسُّع:** إن نظرية عبد القاهر التي تعنى (معنى المعنى) [47] مرتبطة بمصطلح (التوسُّع)، ومصطلح (المجاز)، إذ يقول: "إنَّ صور المعاني لا تتغيَّر بنقلها من لفظ إلى لفظ، حتى يكون هناك اتساعٌ ومجاز، وحتى لا يُراد من الألفاظ ظواهر ما وُضِعتْ له في اللغة، ولكن يُشار بمعانيها إلى معانٍ أُخر"[48]. وهذا الاتساع يحدث من ترابط الجانب النحوي بالجانب البلاغي وتعالقهما، لاعتماد الاتِّساع على الدلالة والمعنى، ففكرة الاتساع عنده من المعاني الثواني مدارها على الكناية والاستعارة والتشبيه.

كما تناول الإمام عبد القاهر مفهوم الاتساع في موضع آخر في حديثه عن قضية الصِّدْق والكذب في الشِّعر، حيث قارن بين الاتساع والتخييل في المجاز وهو من سمات الإبداع وتشكيل الصور الفنية، فيجعل الشاعر يبدع في تراكيبه لتجسيد فكرته بقدرته على التوسع بخرق الأصل المألوف، فمعنى المعنى لا يكون في اللغة العادية إنما هي خروج عن الأصل وانتهاك المألوف والعادي. إضافة إلى قوله: "هذا الضرب من المجاز، على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان"[49]، فيتبين أنه يرى العدول هو جوهر الشعرية ومادتها.

وقد استخدم (القاضي الجرجاني ت366هـ) **التوسُّع** في المعنى من خلال تعلقه بالاستعارة، فيقول: "فأمَّا الاستعارة، فهي أحدُ أعمدة الكلام، وعليها المعول في التوسُّع والتصرف، وبها يُتوصَّل إلى تزيين اللفظ، وتحسين النظم والنثْر"[50]. فالاستعارة تعد أداة من أدوات التوسُّع في المعنى بخرق المبدع قواعد اللغة وتوظيفها في مجالات أوسع للتعبير معتمدا على خياله من إيحاءات سياق خاص إلى سياقات أوسع عما كانت عليه في تركيبها النمطي، وهذا هو الأسلوب العدولي.

ويستخلص مما سبق أن (العدول) - عند اللغويين والنحاة – عبارة عن التحوُّل الأسلوبي، أو الانحراف عن قاعدة ما أو الخروج عن أنماط اللغة أو عن الأصل المثالي، الذي لا يتغيَّر به البنية العميقة له التي بها جوهر المعنى، وفي قالب آخر يمكن أن نقول: إنَّه العدول من صيغة إلى صيغة آخر من صيغ التوسع في المعنى من منظور معنى المعنى كما أوغل فيه عبد القاهر، فمن شجاعة اللغة العربية العدول في تلك اللغة. ومن مرادفات العدول قديما

(الالتفات، الانحراف) وعدل بها في العلامة الإعرابية من حذف وزيادة وتقديم وتأخير وتناوب إلى غير ذلك، والضمائر بأنواعها، والعدد، والنوع (تذكير وتأنيث)، والتعيين (التعريف والتنكير).

المبحث الثاني: مفهوم مصطلح العدول عند المحدثين.

لقد امتد اهتمام النقاد القدامى بالعدول إلى النقد العربي الحديث، لما يثيره من مقاصد، ويؤكد د. محمد عبد المطلب: "أن البلاغيين القدماء تفطنوا إلى أن العدول يتم من خلال عوامل نفسية تكتنف عملية التخاطب: كتشويق السامع، أو التفاؤل، أو التلذذ"[51]. وفي هذا إشارة إلى أنه على الرغم من اختلاف مسميات مصطلح العدول إلا أنها تقترب غالبا في فضاء هذه الظاهرة حيث يملأ صداها فضاء متعدد، ويدور في جوهرها خرق المألوف، وانتهاك أعراف اللغة وسننها، إضافة إلى فكرهم النيّر والمبكر في معالجة هذا الإشكال بوعي ودقة عن طرق استنطاق إمكانات اللّغة، وطاقاتها الكامنة وأسرارها الدفينة؛ مما جعل إشاراتهم وملاحظاتهم بذورًا صالحة للتوسع والتطوير. ومن المباحث التي عدّها القدماء عدولاً؛ الإيجاز والإطناب، والفصل والوصل، والذكر والحذف، والمشاكلة، وغير ذلك. ومن **مصطلحات العدول الأكثر استعمالا عند المحدثين**[52]:

_**الانزياح:** وهو المصطلح الذي تصدر المصطلحات التي تليه في المنهج الأسلوبي الحديث، وعرف الانزياح أنّه "اختراق مثالية اللغة والتجرؤ عليها في الأداء الإبداعي، بحيث يفضي إلى انتهاك الصياغة التي عليها النسق المألوف أو المثالي، وإلى العدول في مستويي اللغة الصوتي والدلالي عما عليه هذا النسق"[53].

ويرى الدكتور عبد السلام المسدي أنّ الانزياح مصطلح عسير الترجمة "لأنه غير مستقر في متصوّره؛ لذلك لم يرض به كثير من رواد اللسانيات والأسلوبية فوضعوا مصطلحات بديلة عنه، وعبارة الانزياح ترجمة حرفية للفظة- (Ecart) -، على أن المفهوم ذاته قد يمكن أن نصطلح عليه بعبارة التجاوز، أو أن نحيي له لفظة عربية استعملها البلاغيون في سياق محدّد وهي عبارة (العدول)، وعن طريقة التوليد المعنوي قد نصطلح بها على مفهوم العبارة الأجنبية"[54]. يتجلى من نص المسدي أنه يرى أنّ العدول أقرب ترجمة له من المصطلح الفرنسي (Ecart) ويعني في أصل لغته (البعد)، والعدول بلاغي الأصل، وقد جعله مرادفا دلاليا لمصطلح (الانزياح)، كما استأثر مصطلح التجاوز كمصطلح مرادف للانزياح. فكان المسدي أول من دعا إلى إحياء مصطلح عربي قديم عرف بالعدول وكان عرضه لمصطلح الانزياح في بداية الترجمة من باب توضيح جدة المفهوم من حيث هو شكل إجرائي طارئ على اللغة العربية، ثم جاء مصطلح العدول إحياء لمصطلح بلاغي تراثي لم يعد يجر محاذير الالتباس[55].

حيث يرى أن الانزياح "هو في ذاته متصور نسبي تذبذب الفكر اللساني في تحديده وبلورة مصطلحه فكلٌ يسميه من ركن منظورٍ خاصٍ"[56]. فقد زاد المسدي من قيمة الانزياح الأسلوبية، إذ أخرجه من زواياه الخفية في البلاغة العربية، ودلالاته في التراث البلاغي. ويرجع ذلك إلى البحث عن خصائصَ مميزة للغة الأدبية بشكل عام، والشعرية بشكل خاص. وقد تبنَّى هذا المفهومَ عددٌ مِن الباحثين والنقاد الغربيين أيضا، ورغم هذا الانتشار إلا أن المفهوم تمّ نقده، نظرا لما اعترضته مشوشات نظرية وتطبيقية، من قبيل صعوبة بناء المعيار، وكيفية تقليص الانزياح وتأويله، إضافة إلى وجود معضلة التوفيق بين وظيفته والوظيفة التواصلية[57].

ومن تتبع آراء النقاد المحدثين توقفنا على كم من المصطلحات –في منظورهم- يرادف العدول وينافسه كما تعددت في سنن العرب، وقد حصرها المسدي مرادفة للانزياح الذي استأثره كثيرا إضافة إلى وضع المقابل الذي

يوافقه في الاستعمال الغربي، مثل: مصطلح، (الانزياح l écart)، (التجاوز لدى l abus :valéry)، (الانحراف لدى leo spitzer :la deviation)، (الاختلال لدى la distorsion: wellek et warren)، (الإطاحة لدى : peytard lasubversion)، (المخالفة لدى l infraction : thiry)، (الشناعة لدى le scandale : barthes)، (الانتهاك لدى cohen : le viol)، (حرق السنن لدى تودوروف)، (اللحن لدى l incorrection : Todorov)، (العصيان لدى aragon : la transgression)، (التحريف لدى l alteration: le groupe mu)[58]. إلا أن هناك مسميات كثيرة جاءت في مبعثرة في دراسات الباحثين المعاصرين تخططت هذه المصطلحات الأربعين مصطلحا[59]، كما تختلف في الدلالة على المفهوم. ويرى المسدي أيضا **أنّ المصطلح يشكّل واقعة لغوية مكرّسة** وطارئة، يقابله مصطلح الاستواء أو التسييق وقد نعته بالواقعة اللغوية النفعية، أما الانحراف فتقابله الاستقامة، والاختلال يقابله التوازن، والإطاحة يقابله الاستقرار، المخالفة تقابله الموافقة، الشناعة تقابله الظرافة، والانتهاك تقابله المحافظة، اللّحن يقابله الصواب، العصيان تقابله الطاعة، التحريف يقابله الصدق[60]. وقد استخدم دارسو الأسلوبية مصطلح الانزياح كبديل للشذوذ الأسلوبي من باب خرق معيار اللغة الطبيعي والمتآلف إلى لغة فنية شاذة عن المألوفة[61]، وهذا ما لا يتحقق في العدول الذي لا يعني أكثر من العدول عن شكل انتقل إلى آخر لا يقل عنه استقرارا، وهنا يتجلى الفرق بين مصطلح العدول ومصطلح الانزياح وغيره.

_ **الانحراف والخرق:** وهذا أكثر المصطلحات انتشارا في النقد والأسلوبية، إلا أنه لم يخل من اضطراب –مثل باقي المصطلحات- في بعض الأحيان، وفي مقدمة هؤلاء النقاد صلاح فضل، الذي استخدمه كثيرا في غالب تأليفه بمعنى **الانحراف**، وقد أشار إلى وجود من بحث في المصطلح في مفهومه البلاغي القديم (العدول)، كما أشار إلى أنّ ثمة بعض الباحثين فضل (الانزياح) لما فيه من إيحاء مكاني تفاديا للإيحاء الأخلاقي في كلمة (انحراف)، وذكر بعض المصطلحات التي تؤدي معنى هذا المفهوم عند بعض النقاد الغربيين بذكر كل ناقد والمصطلح المستعمل لديهم، ومن المصطلحات؛ التجاوز، والانحراف، والخطأ، والانتهاك، وغير ذلك[62]. والتوسع والاتساع مترادفان وفيهما معنى الانحراف كما عند النقاد القدامى والمحدثين[63].

قد حصر المسدي المصطلحات المرادفة للانزياح الذي استأثره كثيرًا إضافة إلى وضع المقابل الذي يوافقه في الاستعمال الغربي، مثل: مصطلح، (الانزياح، التجاوز-الانحراف- الاختلال- الإطاحة- المخالفة- الشناعة- الانتهاك- خرق السنن – اللحن- العصيان- التحريف)، إلا أن هناك مسميات كثيرة جاءت في دراسات الباحثين المعاصرين تخطت الأربعين مصطلحًا، من بينها –إضافة إلى ما سبق- الكسر والشذوذ والغرابة والتّجانف عن المألوف والخلق إلى غير ذلك، كما تختلف في الدلالة على المفهوم، ويشوب هذه المسميات بعض الاضطراب في كتابات كثير من الباحثين، وهذا إجحاف لجعل المصطلح قرين مصطلحات أخرى.

_**الالتفات:** وقد روّج مصطلح العدول عند المحدثين[64] -أيضا- بمعنى الالتفات، فقد أصّل د.حسن طبل لظاهرة الالتفات في التُّراث البلاغي، وربط بين الظَّاهرة ومعطيات علم الأسلوب، واستدل ببعض الشواهد القرآنيَّة التي تضمنت الالتفات مع تحليلها لغة وبلاغة معتمدا على كتب التفاسير. وقد اعتبر بعض البلاغيين في سننهم (الالتفات) وهو أحد أنواع (العدول) أنّه الوجه البلاغي لشجاعة منشئ الخطاب ومدى إبداعه في التعبير بصيغ

عدولية متنوعة الأسلوب؛ لإثارة المتلقي ومفاجأته بالعدول من طريقة لأخرى، أو من معنى إلى آخرَ، وهذا التغيير يعد أساسا من تداولية العدول في النصوص الإبداعية التي تتكيف فيها أفعال الكلام بحسب ظروف المتلقي ومقام واقعه.

المبحث الثالث: أسباب العدول ومقاصده.

لقد اتَّجه بعضُ البلاغيّين في رصدهم للقيمة الجمالية للعدول، إلى النظر إلى الصيغة وما تحويه من إمكانات لُغوية مجاوزة تخرق أصل الاستعمال حيث تُكسب النص قيمةً جمالية، وينبه إلى أسرار بلاغية كثيرة يتعمدها المبدِع، أو منشئ الخطاب. وتكلم الزمخشريَّ عن وظيفة العدول البلاغية على أنها تتجلى في فائدتين: إحداهما إمتاع المتلقِّي، وجذْب انتباهه بالتناوب وبتلك النتوءات، أو التحولات التي لا يتوقَّعها في نسق التعبير وهذه صورة عامة، والأخرى خاصَّة تتمثَّل فيما تشعه كل صورة من تلك الصور -حسب السياق الواردة فيه- من إيحاءات ودلالات خاصة، إذ يقول: "إنَّ الكلام إذا نُقِل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسنَ تطريةً لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختصُّ مواقعه بفوائد"[65]. ويتجلى من نص الزمخشري جماليات العدول بتعدُّد مواقعه، فقد جعل لكلِّ موضع من مواضع العدول فائدةً تستنبط من خلال السياق الوارد فيه، من خلال التأثير الناجم من التجديد والتحديث والتطوير في أسلوب الخطاب ويرجع ذلك كما أشرت من قبل إلى شجاعةَ منشئ الخطاب، ومدى قدرته على الإبداع في التعبير بما يُحدِثه فيه من تشكيلات عدولية أسلوبية مفاجئة للمتلقي بهدف بقصد الإقناع وتوصيل الفكرة.

فالعدول لا يتم إلا لأداء معنى جديد، وهذا ما عرف عن عبد القاهر الجرجاني بمعنى المعنى، وهذا يدل على تطوّر الوعي الجمالي في الفكر البلاغي، ومقياسا لمقدار العدول وتأثيره في المتلقي.

وقد أشار السكاكي إلى قيمة العدول من خلال ربطها بالمتلقي المثالي الذي يتفاعل مع النص ويدرك أنماط العدول وأهدافه، فقال: "وهذا النَّوْع قد تختصُّ مواقعُه بلطائف معانٍ، قلَّما تتضحُ إلا لأفرادِ بلغائِهم، أو للحُذَّاق المَهَرَةِ في هذا الفن، والعلماءِ النحارير، ومتى اختصَّ موقعه بشيء من ذلك كساه فضلَ بهاء ورونق، وأوْرث السامعَ زيادةَ هِزَّةٍ ونشاط، ووجد عنده من القَبول أرفعَ منزلةٍ ومحلٍّ، إن كان ممن يسمع ويعقل، وقليلٌ ما هُم... ولأمرٍ ما وقع التباين الخارج عن الحدِّ بين مُفسِّرٍ لكلام ربِّ العِزَّة ومفسِّر، وبين غوَّاص في بحر فرائده وغوَّاص، وكل الْتفاتٍ واردٍ في القرآن متى صرتَ من سامعيه عرَّفك ما موقعه"[66].

فغرض الأسلوب العدولي ليس جذب اهتمام المتلقي وتشويقه فحسبُ، وإنَّما يكمن في بيان أغراض اقتضت ذلك في النص للوصول إلى معنًى المعنى، ولا يدركه إلاَّ متلقٍّ حاذقٌ ملم برموز الفصاحة والبلاغة متمكن من أساليب اللغة، الذي اطلع على أسرارها، لديه القدرة على قراءة الشكل الغائب للنصِّ من خلال شكله الحاضر، وهذا من أشكال ضروب عِلم البيان، وأدقها فهمًا، وأغمضها سبيلا. وتعدُّد الأغراض المقصودة من العدول تكون بتعدُّد مواقعه أي بالمعنى المقصود لكل سياق. لذلك قد تتعدَّد الأهداف الدلالية للعدول، وقد تتغير الدلالة في أسلوب إلى أسلوب آخرَ حسب اختلاف السِّياق، وقرائن الأحوال. وينهج ابن الأثير نهج سابقيه في الإشارة إلى خبرة منشئ العدول والمتلقي المثالي صاحب الخبرة إضافة إلى أنّ قيمة العدول متغيرة ومتعددة حسب السياقات ويتجلى ذلك من تحليل ابن الأثير لسورة" الفاتحة" أنَّ العدول في أولها بالانتقال من الغَيْبة إلى الخطاب، وفي آخرِها كان العدول

من الخطاب إلى الغَيْبة وفي الحالتين لتعظيم شأن المخاطب_سبحانه وتعالى-، فقد اقتضى الخطاب بالتنوع في المنحنى العدولي رغم توحد الهدف المعنوي الذي يدل على عدم ارتباطه بقيمة ثابتة.

إذًا فتتجلى وظيفة العدول من خلال الانحرافات بالنسق عن مقتضى ظاهره، أو التحوُّلات الأسلوبية في الخطاب؛ للكشف عن قيمتها التأثيرية أو الدلالية.

الخاتمة: يمكن في حَوْصَلة الدراسة الاستقرارعلى عدة نتائج هي:

-أنّ العدولَ مصطلحٌ أسلوبي استخدمه البلاغيون ليمكنهم الربط بين الأسلوبية والبلاغة، وهو لا يرادف الانحراف أو التحول أو الانتهاك أو الخرق أو الانزياح، فكل هذه المصطلحات أساس مفهومها انتهاك القاعدة الأصلية -معيار اللغة الطبيعي-، وهو ما لا يتحقق في العدول الذي لا يعني أكثر من العدول عن وجه قارّ إلى آخر لا يقل عنه استقرارا، ولعل لهذا السبب فضله البلاغيون على غيره من المصطلحات. فثمة خلاف بين العدول وغيره من المسميات، وقد آثرت مصطلح (العدول) لهذا البحث دون المسميات الأخرى؛ لتوضيح سَعة دلالته عن غيره من المصطلحات الأخرى.

-أنّ من شجاعة العربية أنّ الخطابَ لم يعدل عن مقتضى الظاهِر في التركيب اللغوي مراعاة للغة أو لسيكولوجية المتلقي دون المعنى، فالمعنى هو الذي يفرض هذا العدول عن المقتضى للأشكال المعيارية، بجانب التناسب والبلاغة، حيث يتيح الفرصة لمنشئ هذا الخطاب التصرف بإبداع في أساليبها وتعدد أنماطها بشتى الصور الفنية بدافع معنوي يتعلق بغرض الخطاب للوصول إلى تعدد المعاني والامتاع والاقناع.

_يعدّ الأسلوب العدولي للخطاب الأدبي عامة والخطاب القرآني خاصة من الأساليب التي تتَّسع فيها الاحتمالات الدلالية، وتتنوَّع الأنماط، والاتِّساعُ والتنوُّع يرجعان إلى طبيعة التفكير والتأمُّل، وما يصحب ذلك من تنوُّع زوايا النظر؛ لذا يختلف المعنى الذي يتم استنتاجه من متلقٍ إلى آخر ومن متأمل إلى آخر حسب ما يفتح الله له عن كشف أسرار كلِّ نمط منها، وربما يختلف المعنى ويتعدد بتأمل المتلقي نفسه في كل مرة من قراءته للوصول إلى معنى المعنى. فالنصوص الأدبية تُعوِّل كثيرًا في الإفضاء بالمعنى في الأسلوب العدولي.

_العدولُ من الأساليب التي تهتم بالسياق والمبدع والمتلقي، حيث ترتبط بالمبدِع، وتأكيد دَوْره وحضوره فيها، بوصفه القاصد إلى تشكيل صور العدول المختلفة، كما تتطلب من متأمل العدول في قراءته وتأويله أن يكون متلق حاذق لديه بصيرة نافذة، وحسا مرهفا، وتفكرا دون الاعتماد على نظامها اللغوي فحسب، وقدرة على قراءة الوجه المخفي وراء النص؛ لفهمه واستنطاق معانيه.

التوصيات:

_أدعو الباحثين للتفكر والتأمل لإحياء المصطلحات العربية القديمة بشكل من الدراسة الجادة تنظيرا وتطبيقا والبعد عن النمطية في الدراسات.

المراجع والمصادر:

1-ابن الأثير (ت 637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة-القاهرة، 1939م.

2- الأزهري، محمد أبو منصور (ت 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق، محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1، 2001م.

3- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط1، 1991م.

4- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط3، (1413هـ - 1992م).

5- الجرجاني، القاضي (المتوفى: 392هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1900م.

6-ابن جني، الخصائص، تحقيق، محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة لعلمية، 1955م.

7-د. الددة، عباس رشيد، الانزياح في الخطاب النقدي والبلاغي عند العرب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، ط1، 2009م.

8-الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: 3، 1407 هـ

9-السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط2، (1407هـ- 1987م).

10-سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 3، (1408هـ- 1988م).

11-ابن سيدة (ت 458هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، (1421 هـ - 2000م).

12-صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992م.

13-د. عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون- الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، 1994م.

14-أبو عبيدة، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1381 هـ

15- ابن فارس، أحمد (ت395هـ)، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (1418هـ-1997م).

16-الفراء، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، (1408هـ- 1988م).

17-ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2007م.

18- القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: 3 ، 1986م.

19- مرتاض، عبدالملك، نظرية البلاغة، دار القدس العري للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.

20- د. المسدّي عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط:5، 2006م.

21- د.المسدي، عبد السلام، المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال (البيان والتبيين) للجاحظ، حوليات الجامعة التونسية، تونس، ع:13، يناير 1976م.

22-ابن منظور(ت 711هـ)، لسان العرب، دار صادر- بيروت، ط3، 1414 هـ.

23-ابن هشام، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع- سوريا، 1994م.

البحوث:

24-د. بوحلاسة، نوار، الانزياح بين أحادية المفهوم وتعدد المصطلح، مجلة مقاليد، ع: 2، ديسمبر، 2012م.

25-د. صولة، عبد الله، فكرة العدول في البحوث الأسلوبية المعاصرة، مقال، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، ع: 1، 1987م.

26-د. ويس، أحمد محمد، الانزياح وتعدد المصطلح، مجلة عالم الفكر، مج:25، ع: 3، الكويت، يناير/ مارس 1997م.

المقالات على الشبكة العنكبوتية:

27-شكري، إسماعيل، مقال: نقد مفهوم الانزياح، مقال مجلة فكر ونقد، العدد 23، نوفمبر 1999.
https://www.fikrwanakd.aljabriabed.net/n23_14chukri.htm

28-د. ابن قرماز، طاطة، مقال: الانزياح بين التعددية والإشكالية في الحقل الأسلوبي، مارس، 2020م.
https://www.nizwa.com/%D9%85%D8%B5%D8%B7%D9%84%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%86%D8%B2%D9%8A%D8%A7%D8%AD-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D8%AF%D9%91%D8%AF%D9%8A%D8%A9-%D9%88-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B4%D9%83%D8%A7/

الهوامش:

(1) ينظر: الأزهري، أبو منصور (ت 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق، محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1، 2001م، 125/2. ينظر ابن سيدة (ت 458هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، (1421 هـ - 2000م)، 2/ 12. ينظر: ابن منظور(ت 711هـ)، لسان العرب، دار صادر- بيروت، ط3، 1414 هـ، "عدل"، 430/11.

(2) مرتاض، عبد الملك، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، 147، 148.

(3) ينظر: المسدّي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط:5، 2006م، 101.

(4) ينظر: سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 3، (1408هـ- 1988م)، 1 /211، 212، 214، 235.

(5) ينظر: السابق، 176/1، 211 وما بعدها.

(6) ينظر: ابن جني، الخصائص، تحقيق، محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، 1955م، 2/ 360- 441.

(7) ينظر: السابق، 2 /442-444.

(8) السابق،2 /442، وما بعدها.

(9) ابن فارس، أحمد (ت395هـ)، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (1418هـ-1997م)، 1/ 12.

(10) ينظر: سيبويه، الكتاب، (باب ما يحتمل الشعر) 26/1 وما بعدها. و(باب ما يجوز في الشعر ولا يجوز في الكلام)، 2 /124، 125. و (باب ما رخَّمت الشعراء في غير النداء اضطرارًا)، 2 /269، وما بعدها. و(باب وجوه القوافي في الإنشاد)، 4 /204، وما بعدها، وباب (الاستقامة من الكلام والإحالة) 25/1، 26.

(11) منهم؛ الفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والسيوطي، وغيرهم.

(12) سورة الحج: الآية رقم (19).

(13) الفراء، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، (1408هـ- 1988م)، 3/ 419.

(14) السابق، 2 /255.

(15) سورة غافر: الآية رقم (67).

(16) أبو عبيدة، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1381 هـ، 9/1. 131/1، 2 /44. الفراء، معاني القرآن وإعرابه، 412.

(17) أبو عبيدة، مجاز القرآن، 18/1، 19.

(18) ينظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2007م،170/1. 275 - 298.

(19)السابق، 1/ 22.

(20) ابن جني، الخصائص، 1 /398، 399.

(21) السابق، 3 /267، 268.

(22) السابق، 2 /306 - 308.

(23) السابق، 2 /392.

(24) واستعمل (الثعالبي ت429هـ) هذا المعنى على نهْج سابقيه في (فقه اللغة).

(25) ابن هشام، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع- سوريا، 1994م، 1/ 333-335.

(26) كما جاء عند الفيروزآبادي، في بصائر ذوي التمييز، الذي سماه في أثناء حديثه عن أصناف الخطابات والجوابات في القرآن، وجعل منه ثلاثة وجوه.

(27) ومنهم؛ الزمخشري، والرازي، وابن الأثير، والعلوي، والسكاكي، والقزويني، والتفتازاني، وغيرهم.

(28) ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: 3، 1407 هـ، 1/ 13، 3/ 218.

(29) ينظر: السابق، 1/ 13. ويتجلى ذلك في منهج الزمخشري عامة.

(30) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة- دار المدني بجدة، ط3، (1413هـ - 1992م)، 429، 430.

(31) ينظر: السابق، 431.

(32) نفسه.

(33) الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط1، 1991م، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، 395.

(34) ينظر: السابق، 286، 287.

(35) السابق، 262.

(36) ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، (1407 هـ - 1987 م)، 276.

(37) السابق، 359.

(38) السابق، 202.

(39) سورة المدثر: الآية رقم (4).

(40) ابن الأثير (ت 637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة. القاهرة، 62/1.

(41) ينظر: السابق، 2/ 64، 145، 317.

(42) سورة النساء: الآية رقم (43).

(43) ابن الأثير، المثل السائر، 3/ 54.

(44) السابق، 3/ 55.

(45) السابق، 2/ 12، 2/ 145.

(46) السابق، 2/ 137.

(47) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، 263. وعند القرطاجني تعرف بالمعاني الثواني، ينظر: القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: 3، 1986م، 23، 24.

(48) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، 265.

(49) السابق، 295.

(50) الجرجاني، القاضي علي بن محمد (ت 392هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1900م، 428.

(51) د. عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون- الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، 1994م، 272.

(52) جاء بمعنى الانزياح عند المحدثين، وتعددت معانيه كالانحراف والعدول والانتهاك على أساس جعل الانزياح المصطلح العام. ينظر: د. الددة، عباس رشيد، الانزياح في الخطاب النقدي والبلاغي عند العرب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، ط1، 2009م، 34.

(53) السابق، 15.

(54) المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، 162، 163.

(55) ينظر: د. ويس، أحمد محمد، الانزياح وتعدد المصطلح، 63.

(56) المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، 68.

(57) ينظر: شكري، إسماعيل، نقد مفهوم الانزياح، مجلة فكر ونقد، العدد 23، نوفمبر 1999.
https://www.fikrwanakd.aljabriabed.net/n23_14chukri.htm

(58) ينظر: السابق، 79، 100. وينظر: د. ويس، أحمد محمد، الانزياح وتعدد المصطلح، 57، 58.

(59) ينظر: د. ويس، أحمد محمد، الانزياح وتعدد المصطلح، 59.

(60) ينظر: المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب ، 101.

(61) ينظر: د. ويس، أحمد محمد، الانزياح وتعدد المصطلح، 63.

(62) ينظر: فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992م، 63.

(63) من هؤلاء النقاد د. فضل، صلاح، ود.شكري عياد، و د. عبدالمطلب، محمد، ود. ربابعة، موسى، ود. السيد، شفيع، وغيرهم.

(64) ومنهم: د. طبل، حسن، في كتابه: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، وحمادي، صمود، حمادي، وصولة، عبد الله، في مقاله: فكرة العدول في البحوث الأسلوبية المعاصرة، فتناول العدول من خلال عرض آراء النقاد الأسلوبيين، ينظر المقال في مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، ع: 1، 1987م. و د. السعدني، مصطفى، في دراسة العدول في الشعر، والأزهر الزناد، وغيرهم.

(65) ينظر: الزمخشري، الكشاف، 1/ 13. ويتجلى ذلك في منهج الزمخشري عامة، و ينظر كتب التراث مثل: مفتاح العلوم، والإيضاح، والطراز، والبرهان في علوم القرآن، وغير ذلك.

(66) السكاكي، مفتاح العلوم، 1/ 201.